صديقي رينـــان !

قصـــة عصرية

تأليف:

حسين شوقي

م. مصر ٦٧٠٣ / ٣٢ / ٢٠٠٠

*

صديق رينان

عرفتُ رينان في سنة ١٩١٦ بمدينة « برشلونة » في اسبانيا وكنت أقيم فيها مع أسرتي مدة الحرب العالمية ، قدمناها على أثر نفي والدي من مصر في ذلك الحين !...

كنا ، رينان وأنا ، في مدرسة اسبانية ، في فصل واحد ، ولكن معرفتنا وقتئذ لم تتعد تحيـة المجاملة للزمالة في الفصل . ولم تقم بيننا الصداقة الا بعد وقوع حادث مكدر اثناء درس اللغة الألمانية وأستاذها رجل ألماني مولع بالنظام الى حد الشذوذ ، اذ كان ضابطاً في حرس القيصر ، ولم يكن تدقيقه قاصراً على نظام الفصل فحسب بل تعداه الى تهجي الكلمات ونطقها . فتصادف ان طالباً أراد اثناء القراءة أن يدقق في نطق كلمة ترضية لأستاذه ولكن الأستاذ حمل عمله على محمل السخرية ، فأمره بالخروج من مقعده وبالوقوف قريباً من منبره ، فما كان من رينان ومني الا أن ضحكنا عن غير قصد في وقت واحد وبصوت عال ، فنالنا منه العقاب نفسه . وبينما نحن

الثلاثة وقوف الى جانب الأستاذ إذ برينان يتبادل الاشارات مع طالب آخر من المقاعد الأولى فلمحه أستاذنا فصفعه على خدّه فنظرت لرينان وقد وضع كفه على الخدّ المصفوع وابتسمت فأدركتنى أنا كذلك يد الأستاذ الغليظة ! .

ومذ ذلك الحين بدأت صداقتى مع رينان ، فنقلت فى اليوم التالى أدواتى الى مقعد خال بجانبه : فانظر الى التجاذب كيف يبعثه أتفه الأمور ! .

كان رينان رجلا صغيراً ، كما يعبر الفرنسيون، فى الثالثة عشرة، من أسرة فرنسية نبيلة ، يبدو كرم محتده على محياه الدقيق ، ومن مشيته النبيلة وما اشتمل عليه خلقه من تهذيب موروث غير متكلّف فيه . . وكان خجولا ، هادىء الطبع ، قليل الكلام يميل الى العزلة مما كان يدعو زملاءه الطلبة الى أن يصفوه بالكبر وهو برىء منه ، إذ كان الصمت والعزلة من طباعه ، ولكن رغم هذه الأقاويل كان رينان موضع تقديرهم واحترامهم ! .

كانت أسرة رينان قد هاجرت باريز منذ سنوات حرصاً على

كرامتها ، أثر ضياع القسم الأكبر من ثروتها فى مضاربات مالية .. غير موفقة !

وكانت هذه الأسرة تتألف من رينان ووالديه ! .

كنا ، رينـان وأنا ، على وفاق تام من حيث ميولنا وعاداتنا ، فقد كان كل منا مولعاً بالسينما وجمع طوابع البريد وكان ذلك غرامنا الوحيد فى أوقات الفراغ ..

أما ميدان الحب فقد كنا نجهل فى ذلك الوقت ضروبه ومغاوره اللهم الا بعض غزوات مضحكة كنا نقوم بها هنا وهناك تقليداً لما نشاهده فى دور السينما !..

وكما كان كلّ منا يشاطر الآخر مسرّاته وملاهيه كانت هموم كلّ منا موزّعة بيننا على السواء ، ولكن هـل للطفولة السعيدة هموم ؟ أليس من المضحك أن يكون من أسـباب حزننا فى ذلك الزمن عجـز ميزانيتنا الخفيفة عن شراء طابع بريد مكمّل لسلسلة فى المجموعـة ؟ أو احتجابنا عن دور السينما ـ أثناء الامتحانات ـ بينما تمثّل فيها رواية لشارلى العظيم ؟

أما معاملة أستاذ الألمانية الخشن فقد تغيّرت بعد ذلك الحادث بل بالعكس صرنا مغمورين بعطفه وسط حسد سائر التلاميذ ، فهل كان لوخز ضميره نصيباً فى هذا التغيير ؟

ولما قصدنا بعد ذلك مع طلبة الفصل الى حمّامات البحر فى أول الصيف كانت عناية هذا الأستاذ بنا ، وهو فى الوقت نفسه أستاذ التربية البدنية ، عناية كبيرة الى درجة أننا ـ رينان وأنا ـ كنا أول من تعلّم السباحة من بين التلاميذ !

مضت ثلاث سنوات ونحن على هذه الحال من الغبطة والسرور لاهين لاعبين تملأنا الطمأنينة للحياة ، واثقين بالغريزة عند مبيتنا كل ليلة من استقبال الصباح فى اليوم التالى ..

ولكن كما أن لكل حزن نهاية ، فلكل سرور نهاية ، فقد قدّر أن نفترق إذ رأت أسرة رينان أن يسافر الى فرنسا لاتمام دراسته العليا هناك حتى يتيسّر له عند إتمامها أن يلتحق بالسلك السياسى بواسطة أحد أقاربه ـ وهو عمّه ـ الذى كان يشغل وقتئذ منصباً كبيراً فى وزارة الخارجية ..

سافر رينان الى باريز تاركا إياى فى أشــد حالات الحزن والألم لأنه كان صورة من شخصى ، تلك التى فطن إليها المصريون القدماء وعبّروا عنها بالـكا[١] ..

وقـد بعث الىّ رينان بخطاب لدى اجتيازه الحـدود الفرنسية يكرّر فيه تحيته ويجدّد صداقته ، فأجبته على الفور بخطاب فى مثـل هذا المعنى مدفوعاً بحماسة الصبا حتى أن خطابى أدركه فى باريز بمجرد وصوله إليها !.

ثم توالت المراسلة بين رينان وبينى ، وكانت متواصلة فى أول الأمر حتى اذا جاءت سنة ١٩١٩ التى عدت فيها مع أسرتى الى مصر انقطعت بيننا المراسـلة .. فاذا كان للصبا مزايا فمن سيئاته لا شك سرعة النسيان !....

***

قضيت بعد ذلك ثلاث سنوات فى مصر لم أسمع خـلالها شيئاً

(١) فى الديانة المصرية القديمة تكون الـ (كا) نسخة طبق الأصل من الشخصية التى تحركها غير أنها من مادة أقل كثافة.

عن رينان ، إلى أن حانت سنة ١٩٢٣ فسافرتُ فيها إلى باريز لتلقّى العلوم القانونية ، فكان طبيعياً وقتئذ أن أفكّر فى رينان وأن أسرّ لفكرة لقائه رغم جهلى عنوانه أو صعوبة الوصول الى لقائه فى مدينة عظيمة مترامية الأطراف كالعاصمة الفرنسية ، ولكن ثقتى كانت كبيرة فى الصدفة أم الأعاجيب !...

فى أيامى الأولى بباريز لم أفكّر فى رينان ولا فى غيره ولا فى الدراسة نفسها إذ كنت مفتوناً بباريز التى سُميت بحق عاصمة العالم لما احتوته من مبان تاريخية رائعة شيّدت فى زمان ملوكها العظام ، ومتاحف جليلة ، ومتنزّهات بديعة ، وضواح فتّانة ، ودور راقية للتمثيل ، وأماكن للّهو والسرور قد تغرق فيها أشجان الانسانية كلها .. ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى زرت فيها باريز ، إذ أن أسرتى أتت بى إليها طفلا قبل الحرب الكبرى ، فلا أذكر شيئاً بطبيعة الحال عن تلك الرحلة ، إذ لم يكن مرورى بباريز وقتئذ إلا كمرور بضاعة « الترانزيت[1] » ..

(١) مجرد مرور بضاعة على أرض دون انزالها

كنت ذات ليلة أسير وحيدا فى شارع « الشانزليزه » الفخم ولا غاية لى الا التخلص من النوم فاذا بأنوار مرقص « الأمباسدور » الرائع تجذبنى اليه مسلوب الارادة كما يجذب الفراشة نور المصباح فاذا بى اقابل رينان هناك وجها لوجه بعد تلك الغيبة الطويلة . . كان رينان جالسا الى مائدة كبيرة تقرب من المكان المعدّ للرقص فى صحبة مرحة لفتنى اليها على الفور لدى دخولى ضجيجها المرتفع المتواصل من ضحك وهتاف ومع ذلك عرفت باعث هذا المرح عند ما شاهدت زجاجات الشمپانيا المبعثرة هنا وهنالك على المائدة فالخمر وان كان ينسب المرء اليها بعض نزواته وسقطاته فهى أيضاً عونه الصادق فى التخلص من تكاليف المجتمع . . بل والحياة !... وكانت صحبة رينان هذه مكوّنة من سيدتين متأنقتين من محترفات الرقص بذلك المكان، احداهنّ فى منتصف العمر والاخرى فى خريف الشباب ، وأربعة فتيان فى ريعان الصبا منهم رينان يلبسون لباس السهرة الفراك لبسا ينطوى على كثير من سلامة الذوق . .

عرفت رينان حالا اذ لم يتغير شكله قط سوى ان جسمه قد استطال قليلا ، ولم أكد أمدّ اليه يدى حتى ضمّنى الى صدره ثم

أجلسني بجانبه وقدمني الى صحبه وناولني كأساً من الشمپانيا في حماس من اختلط بدمه ذلك السائل المبهج وقال :

أنت تريد لاشك أن توجه إليّ استجوابا طويلا أليس كذلك ؟ أرجئه للغد ! پروزيت (١) ! ثم أفرغ كأسه في فمه دفعة واحدة ! بعد ذلك سحب احدى السيدتين من يدها وتوجه بها الى حلبة الرقص وجعل يراقصها كالمعتوه عبداً لحواسه تحركه كما تشاء ..

وكانت موسيقى «الچاز» المجنونة تزيد هياج الراقصين بأنغامها الصاخبة المولولة .

واستمرت الحفلة بين اللهو والسرور ، وكلما أمعن الليل كثر اللغط وازداد حماس الراقصين الى ان تحول رقصهم الى زوبعة هوجاء تنبعث منها رائحة الأجسام المعطرة ..

وحوالى الساعة الثانية صباحا أحسست بتعب من الضوضاء التي تحوطني فانسللت من المرقص بعد ان حصلت على عنوان رينان من أحد رفاقه حتى استطيع أن ازوره وأتحدث اليه في ظرف أحسن

---

(١) في صحتك بالألمانية

مناسبة .. مما كنا فيه ! .. كنت أفكر بطبيعة الحال وانا فى طريقى الى الفندق ، فى تلك المصادفة العجيبة ! ولقد أدهشنى تغير خلق رينان اذ عهدى به مذ كنا فى « برشلونه » هادئا وديعا لذلك شككت فى ان مرح رينان المبالغ فيه ، كان فى تلك الليلة ، مرحا مصطنعا وانه حتما يخفى وراء هذا السرور ألما نفيساً كما هى العادة فى مثل هذه المواقف التى كثيراً ما شهدناها ونشاهدها على الشاشة البيضاء ..

فى اليوم التالى توجهت الى حى « مونبارناس » حيث يقيم رينان فى احدى العمارات المشيدة حديثاً ، ذلك الحىّ الذى ازدحم فى السنوات الأخيرة وحلّ محل حى « مونمارتر » فى امارة الليل ..

مسكن رينان فى الدور الثانى وهو عبارة عن شقة صغيرة جميلة على الطراز الحديث ، صحية البناء ، تكفل دخول الشمس بمقدار وافر كلما طلعت الشمس كذلك كان الأثاث من الطراز الحديث فتشاهد هنا وهناك مقاعد مريحة بسيطة الزخرف ، مصنوعة من النيكل حتى يُخيّل اليك ان الدار عيادة طبيب ! .

وكنت ترى الجدران تزينها بعض الصور الحديثة التى يتعذر تمييزها لابهام راسمها ! .

وتدخل طائفة غير منظمة من المثلثات والمربعات بعضها فى بعض ، فكأنك حيال لوحات هيروغليفية ! .

كان رينان لا يزال يغط فى نومه مع ان الساعة قد جاوزت الثالثة بعد الظهر ، أما حجرة النوم فكانت مشوشة النظام فكنت ترى ثياب السهرة مبعثرة فى جنبات الحجرة الأربع ، كذلك تشاهد زجاجة من الشمبانيا ملقاة على البساط ، وقد خبأ رينان رأسه بين المخدات حتى لا يزعج نومه ضوء النهار المتسرب الى الحجرة من النافذة . .

بدأ رينان يعتذر عن سلوكه ليلة أمس فى المرقص وكان يبدو عليه الخجل مما كان عليه فى تلك الليلة ! ثم قال ليستر حيرته : ألا ترى انى تغيرت كثيراً ؟ أليس كذلك ؟ أتذكر الأيام السعيدة التى قضيناها فى « برشلونه » ؟ أتذكر « فلفدررا »[1] حيث كنا نطارد فى غاباتها الجميلة : الفراش المسكين ، ولم يكن له من ذنب سوى حسن منظره ؟

فأجبته : نعم ان برشلونة فى ذكراى أبدا ، تلك المدينة التى

(١) احدى ضواحي برشلونة .

أطلقوا عليها بحق « لؤلؤة البحر الأبيض » كما انى أتمثل ذكريات الطفولة التى لا تُمحى ، بل هى غدير صاف نروّى به جفاف حياتنا المادية . . وقد علمتُ فيما بعد أن والديه توفيا ، وكذلك عمه الموظف بالخارجية ، وقد خلف لرينان ثروة لا بأس بها . اذ لم يكن له وارث غيره ، وعرفت ان رينان درس العلوم السياسـية ولـكنه أهملها فى الأشهر الأخيرة كما أهمل سائر شؤونه من جرّاء حب تسلّط عليه «فكنت اذن مصيباً عندما ساورنى الشك فى مرحه ليلة المرقص ! ، أما قصة غرامه فانى أترك رينان يحدثنا عن نفسه ، قال :

قبل أن يؤول الىّ ميراث عمى لم تكن اقامتى فى هذا المسكن الفخم بل بالعكس كنت أسكن فى شارع ضيّق فى الحىّ « اللاتينى » عند امرأة عجوز . وكانت حجرتى صغيرة مظلمة ، فكنت كلما تأمّلتها أو نظرت من خلال نافذتها ونحن فى فصـل الشتاء أرى سماء باريز مكفهرّة عابسة فأشـعر بالوحدة وأحنّ اليكم . ، والى شمس اسبانيا المشرقة ، والى سمائها ذات الصفاء الشرقىّ . .

ومع ذلك كنت أقضى معظم أوقاتى فى تلك الحجرة عاكفاً على

الدرس والمطالعة ، اذ لم تكن حالتى المادية تبيح لى حياة المرح والسرور ، كما أن ما طُبعت عليه نفسى من هدوّ ورزانة ، يزيدها فراق الأهل كآبة كان سبباً فى بعد زملائى الطلبة عنى ونفرتهم من محيتى الحزينة الكئيبة . ولكن هذه الحال لم تدم طويلا فقد بعثت الىّ العناية بعد بضعة أسابيع من اقامتى فى هذا المسكن ، شعاعا من الأمل والحياة فى صورة فتاة جميلة قدمت فاستأجرت حجرة بفندقنا !

كانت فتاة فى العشرين من عمرها شقراء ، ذهبية الشعر ، زرقاء العينين ممشوقة القوام ذات ثغر عقيقى قد خلق للتقبيل أو هى صورة ثانية للفتيات الحسان اللواتى وصفهنّ « جريم [1] » فى كتابه عن خرافات نهر الرين ! ، وكنا نلتذ بقراءة هذا الوصف فى فصل اللغة الألمانية ! . .

وقد قدّمتنى إليها ليلة وصولها السيدة العجوز صاحبة الفندق أثناء العشاء فعرفتُ أنها قادمة من « شامبرى » « بالسفوى العليا »

(١) ولهلم جريم ١٨٨٦ — ١٨٥٩

لتعمل فى محل خياطة شهير بباريز لأن الرزق ضيّق فى بلاد الريف كما تزعم ـ بينما أفق الأمل هنا فى العاصمة متّسع .

ولقد أحببتُ دنيز ـ وهو اسم الفتاة ـ منذ تلك الليلة ، فان لنظرتها جاذبية غريبة ، فهى فى ذلك مثل الثعبان الهندى الذى يجذب إليه الحمل بمجرّد النظرة اليه كما يقولون ، وكنتُ قد حجزت بالصدفة فى ذلك المساء محلين بمسرح « ساره برنار » حيث كانت الممثلة البارعة مدام سيمون تقوم بدور النسر الصغير ، وكانت التذكرة الأخرى لصديق لى ، فعرضت على دنيز الذهاب معى بدلا عنه فرفضت فى بادىء الأمر ثم عادت فقبلت ازاء الحاحى عليها ، فذهبنا إلى المسرح بعد ما تركت لذلك الصديق كلمة اعتذار عن هذه الفعلة ! .

كم كنتُ سعيداً تلك الليلة لمرافقتى دنيز ! فكنت تارة أتقدمها فى السير وطوراً أسير بجوارها وعينىّ تحملقان فى ذلك الوجه الفتان كما يحملق الطفل فى قطعة من الحلوى . .

وفى اليوم الثانى توجهتْ دنيز الى عملها وكنت أرافقها اليه كل صباح ، ثم أذهب بعد ذلك إلي الجامعة فأحضر دروساً لا أعى

شيئاً منها إذ كان عقلى بعيداً عنى يرافق تلك الفتاة فى حركاتها وسكناتها ، فاذ ما جاء موعد انصرافها انتظرتها أمام محل عملها ، وكانت دنيز تسرّ من ذلك لأن أكثر رفيقاتها فى العمل لهن أصدقاء ينتظرونهن لدى الباب لحظة خروجهن

مضى شهر لم أفارق فيه يوما دنيز ، ولقد بذلتُ لها ما فى طاقتى من عناية حتى لا تمل محبتى ، فكنتُ أذهب بها يوما الى المسرح و يوما إلى السينما وآخر إلى المرقص ، وكانت دنيز تحب الرقص إلى درجة عظيمة .

وقد ساعدنى على تحمّل النفقات المستجدة فى ميزانيتى ما ادّخرته فى الأيام الأولى من مجيئى إلى باريز ، وقد ذكرت لك انى كنت قليل الخروج ، أقضى الساعات بالفندق بين الكتب والمطالعة .

أما دنيز فقد أخذتْ تميل إلىّ بتوالى الأيام وتود الخروج معى ، وكان يداخلنى السرور حين تقول لى فى قطار « المترو » لدى عودتنا إلى الفندق : إلى أين نذهب فى هذا المساء أيها الصديق العزيز ؟

ولم يعد قط يضايقنى الشتاء بسمائه العابسة ، فان قلبى كان هائماً فى ربيع خالد !

أما الدراسة فقد بدأت أهملها منذ ذلك الحين رغم عتاب دنيز .. كما أن السيدة صاحبة الفندق كانت تصيح بي في حنان كلما رأتني منفرداً : انك تهمل عملك أيها الشاب، بالله ألا ذاكرت دروسك ؟

وما ألذ تلك اللحظة التي قبلتُ فيها دنيز للمرة الأولى ، فلقد أحسست برأسي يدور كأنه تحت تأثير البنج ! . . وقع ذلك لدى انصرافنا ذات ليلة من المرقص ، وكانت الخمر قد لعبت برأسينا قليلا . . ومع هذا لم يكن ما فعلته قصداً بل وقع بلا وعى منى .. ، فقد قالت لى ونحن على باب المرقص : تأمل فى جيدى يا رينان هل تجد به جرحا ، أظن أنى جرحت لدى وضعى القبعة ؟ فلم أدر وقتئذ كيف قبلتها . . أما دنيز فضحكت ولم تقل شيئاً . . ثم تكررت منى تلك الرياضة الشهية فى عدة مناسبات ، ولكن كنتُ ألاحظ أن دنيز لم تكن تتقبل قبلاتى بارتياح فكففتُ عن تقبيلها وأنا آسف !

لاحظتُ بعد ذلك تغيراً فى شعور دنيز نحوى وكلفة وبروداً فى المعاملة ، ثم جعلت تخلق الأعذار للتخلف عن مرافقتى ، فاضطربتُ

وقتئذ وأظلمت الدنيا فى عينىّ وخشيتُ من تعلقّها بشخص آخر ولـكن من حسن حظى لم يلق هذا الرأى قبولا لدى نفسى المعذّبة ، اذ راقبتُ دنيز مراراً فى خروجها و يا للخجل ! مدفوعا بشيطان الغيرة ، فلم أجد لها صلة بأحد . .

إذن لا بد أن يكون تغير دنيز ناشئاً عن أنها فتاة جد تريد أن تكون علاقتنا ببعضنا شرعية ؟

ولـكن هل كان فى استطاعتى الاقتران منها وقتئذ وأنا فقـير وأهلى فقراء كذلك ؟ ولم أتم بعد دراستى حتى أستطيع أن أجد عملا ، كلانا يرتزق منه ؟ . . . .

و بينما كنتُ ذات ليـلة فى حجرتى بعد تناول طعـام العشاء أفـكرِ فى ذلك ، إذ بدنيز تدخل علىّ فى جدّ واضطراب وتقول : أتأذن لى فى محـادثتك يا رينان ؟ فأجبتها : طبعاً . . . تفضلى . . . إجلسى . . وكم خفق قلبي وقتئذ اذ علمتُ أن مصيرى معلّق على تلك المقابلة الرهيبة ! .

قالت دنيز : إنى آسفة من أجلك يارينان فانك تحبنى ولـكن

قلبي غير طليق اذ أنى أحب رجلا آخر فى السڤوى ، وكنتُ وددت أن أقول لك ذلك قبل بدء تعلقك بى ولكنى ترددتُ دائما خشية أن أدخل عليك الحزن ، فسامحنى يارينان !

يا لعجب الحياة ! كيف قدّر أن تهدم الكلمة الواحدة هيكلا بشريا ؟ فلقد أحسست بتحطم كيانى دفعة واحدة لدى سماعى هذا التصريح ! ثم استمرت قائلة : ولكن ذلك لا يمنع من أن نبقى أصدقاء كما كنا فى البداية ، أليس كذلك ؟ . . .

فأجبتها بخشونة : ولماذا تركت حبيبك فى السڤوى ؟

قالت : لا تغضب يارينان ، سأقص عليك الخبر يوما آخر تكون فيه أقل اهتياجا ثم تركتنى وغادرت الحجرة

مسكينة دنيز أنها كانت تتألم من أجلى فلقد قرأت ذلك فى عينيها فى تلك الساعة ، ولكن ماذا تفعل الفتاة وهى أسيرة الحب ؟

أدركتُ فى تلك الليلة سبب ما كان يعتريها فى بعض الأوقات من الحزن والألم فى رحلاتنا ونزهاتنا الماضية ! . .

***

لم ينقض زمن طويل على هذا الحادث حتى سكن اضطرابى

وهدأت أعصابى وذلك لأننى لم أعد أرى دنيز إذ انتقلتُ إلى فندق أخر ، كما عكفتُ على الدراسة فكانت بلسما طيّبا لجروحى وأشجانى.

فى هذا الوقت آل إلىّ ميراث عمى ، فانتظرت الى أن أدّيتُ إمتحاناتى ثم سافرت إلى إيطاليا ترويحاً للنفس والبال ، وكنتُ توّاقا منذ الصغر إلى مشاهدة آثارها الفخمة ، فذهبتَ إلى تلك المدن الجليلة : روما ، نابولى ، فيرنزى ، فينسيا . . وغيرها . .

وكنتُ أشعر براحة نفسية فى كثرة التنقّل الذى شغلنى عن التفكير فى أمر دنيز .

لذلك لم أدع موقعاً أثريا كبير الشأن أو صغيره إلا ذهبتُ لمشاهدته ، وكنت أطوف تلك الديار كأنى اليهودىّ التائه !

ولقد أخطأتُ فى ذهابى الى إيطاليا وجرحى حديث الالتئام ، إذ هى بلاد الحب والشعر والجمال . .

كنتُ فى فنيسيا ذات ليلة قمرية بديعة أتنزّه فى أحد زوارقها الأثرية اللطيفة ، وكان ربّانها يغنّى الأناشيد الايطالية الغرامية الشجيّة بصوت عذب ، وفى ذلك الوقت نفسه مرّ بنا زورق يحمل

عاشقين متعانقين فما وقع نظرى عليهما حتى تذكّرت الماضى القريب ، وكدتُ أحنّ ألما ، فقفلت عائدا الى الفندق ، وفى صباح اليوم التالى جمعتُ أمتعتى وعدتُ إلى باريز ! ..

***

استأجرتُ لدى عودتى من إيطاليا هـذا المسكن ، ثم صمّمت على استئنـاف دراستى التى هجرتهـا طويلا حتى انتهى من السنـة الباقية لى من مقرّر العلوم السياسية ..

وكـنتُ فى ذلك الوقت المثل الأعلى للطالب المجدّ . . ولـكن من سوء الحظ لم يدعنى زملائى الطلبـة وشأنى كما فعـلوا بى فى المرة الأولى ! بل جعلوا يتوددون إلىّ إذ علموا بالمـيراث ، واليسر المادىّ الذى أسبح فيه ! . .

فصاروا يخلعون علىّ من الصفات الطيّـبة ما أجهلها فى نفسى ، ويبحثون بالمـكرسكوب فى خلقى عساهم يهتـدون منـه إلى ميزات جديدة أتصف بها ! وكلما ذُكِرَ إسمى فى أحد منتديات الحىّ سمعتَ من يقول عنى : أنه شاب ظريف ! وذلك لأن هذا الشاب الظريف

ينقلب لهم فى وقت الضرورة إلى بنك سلفة ، وقد صارت سيارته تحت أمر إخوانه ، وزجاجة الوسكى مباحة لهم فى كل ساعة من النهار ! ولكن من جهة اخرى فان صحبة هؤلاء الفتية أنستنى أشجانى لما كانت عليه مجالسهم ومجتمعاتهم من الضحك والجلبة والضوضاء .. وبدأت أنسى حقيقة مأساتى ، إذ تمرّ عليّ أيام دون أن افكّر فى دنيز ، وإذا تذكّرتها لم تؤلمنى ذكراها كما كان شأنى من قبل !

* * *

انقضى شهران على هذه الحال . . ففى ذات يوم دافىء من أيام الشتاء الباردة ، كانت الشمس فيه كالأم الحنون ، وقد احتضنتْ ابنتها الأرض ، كنت أتنزّه على الضفة اليسرى من السين من جهة ميدان القديس ميشيل حيث توجد تلك المكاتب الصغيرة اللطيفة المتنقلة لبيع الكتب القديمة أو الكتب المستعملة ، فأخذتُ أقلّب النظر فيها لعلى أعثر بينها على سفر قيم نادر . . . وبينما أنا مشغول بذلك سمعتُ ضجة أمام إحدى تلك المكاتب ، لا تبعد كثيراً عنى ! فتوجّهتُ الى حيث كانت الجلبة ، وقد تجمّع على

الفور فى ذلك المكان جمهور متطلّع فضولىّ مثلى ، لم أدر من أين أتى ! فاذا الأمر شجار قائم بين أحد الباعة ومتفرّج ثقيل لم يكتف بمشاهدة الكتب المعروضة بل أخرج مدية من جيبه وجعل يقطع صحائف كتاب جديد وذلك على سبيل المعاينة !

بعد ذلك أردتُ أن أنصرف فجعلتُ أشق لنفسى طريقا بين ذلك الجمع فاذا بدنيز أمامى ! فابتسمتْ دنيز ثم مدت لى يدها فقبلتُها بحرارة واشتياق ، وكأنها الحبل الذى يمدّ الى الغريق لانقاذه ، وقد شعرتُ باضطراب شديد فى تلك اللحظة كأنه زلزال قد اهتز له قلبى وأعصابى ، فكم كنتُ غافلاً حين توهمت أن نفسى شُفيت من دنيز ومن هواها ! صعدنا بعد ذلك شارع القديس ميشيل دون أن يوجه أحدنا سؤالا الى الآخر ، ثم جاء دور الأسئلة التافهة التى تقال فى مثل هذه الظروف الحرجة ؛ فاستفهمت هى عما وصلت اليه دراستى ، كما سألتها أنا عن صحتها وصحة السيدة صاحبة الفندق ، وعما اذا كانت لا تزال تعمل فى محل الخياطة ؟ ولما بلغنا حديقة اللكسمبور [1] توقفت دنيز عن المسير لحظة وقالت : هل لك

---

(١) قصر اللكسمبور : مقر مجلس الشيوخ الفرنسى وحديقته الغناء متنزه عمومى للباريزيين .

فى جولة فى ذلك المتنزه البديع حتى ننتفع من حرارة الجو ونغنم ذلك اليوم بسمائه الصافية ؟ فوافقتُ بطبيعة الحال على هذه الرغبة ، وهل كنتُ أستطيع مخالفة دنيز التى لو طلبتْ إلىّ مرافقتها الى أعماق « الستيكس [1] » لفعلتُ ذلك طائعاً مسروراً ! و بعد أن تنزّهنا قليلا فى طرقات ذلك القصر الفخم ، جلسنا على مقعد من الرخام فى منتصف الحديقة بالقرب من النافورة لنشاهد الأطفال وهم يسيّرون فيها سفناً ومراكب شراعية يؤجرها اليهم عامل مقابل أجر زهيد ، كم كنتُ أحسد فى قرارة نفسى هؤلاء الصغار من أجل رنة صوتهم الطاهرة وضحكتهم البريئة ! حقاً ما أسعد هؤلاء الصغار الذين لم يعرفوا بعد ما قد خبّأ لهم القدر ! . . .

قالت دنيز : لقد تعذبت كثيراً ، أليس كذلك يا رينان ؟ ولكنى أنا أيضاً تعذبتُ من صاحبى ! فكأن القدر ثار لك منى . . إعلم أن ذلك الرجل الذى لاضمير له هجرنى واقترن بفتاة مثرية !..

قلت مغضباً : يا للشقىّ !

---

(١) نهر فى جهنم (الميثولوجيا)

وكم أحسستُ فى تلك الساعة بحقد لذلك الرجل البربرىّ الذى يسبّب شقاء وتعاسة لفتاة طاهرة مثل دنيز ! كما أبغضتُ المال الذى أضحى منبعاً للآلام البشرية ومع ذلك يجرى وراءه الجميع !

ثم قلتُ مستمراً : وكيف علمتِ ذلك ، هل عدتِ الى « السفوى » ؟

قالت : نعم فقد كانت عادته أن يرسل إلى فى كل أسبوع خطابا فانقطعت ذات يوم خطاباته ، ثم صار البريد يحوّل إلىّ رسائلى لتغيير عنوان المرسل إليه ، وجهله عنوانه الجديد ، فأوجستُ ريبة وقتئذ وسافرتُ توّاً إلى « شامبرى » ويا ليتنى لم أفعل ! فقد علمتُ هنالك الحقيقة المرة من بعض الأصدقاء . . علمتُ أن الرجل قد رحل عن المدينة للتزوّج فى الجنوب من بنت أحد كبار رجال الصناعة ! . .

وسكتتْ هنيهة ثم قالت : رينان أتريدنى ؟ فعقلت الدهشة لسانى إذ بوغت بسؤالها فى تلك اللحظة وياللهول هذا السؤال !

قالت دنيز فى حزن : قل انك نسيتنى ، أليس كذلك ؟ فأجبتها أأنساك يا دنيز ، ما ذا تقولين ؟ انى أعبدك ! ثم احتضنتها بين ذراعى

دون أن أبالى بالمارة الذين وقفوا ينظرون الينا ضاحكين مبتهجين . .

ثم قلت لها : ولكن أخشى أن يكون جرحك لم يلتئم بعد ؟

فقالت فى انفعال : كلا ! كلا ! اننى نسيتُ ذلك الشقىّ ! . . . .

* * *

بعد ثلاثة أيام سافرنا — دنيز وأنا — الى « ڤنيسيا » بناء على رغبتها ، اذ أرادت أن تشاهد تلك المدينة الساحرة ذات الشوارع العائمة والجسور المرمرية المقوّسة التى طالما تغنى بجمالها الكتاب والشعراء من مختلف الأمم . .

وقد صادفت هذه الرغبة من نفسى ارتياحا إذ كنت أريد أن تشاهدنى « ڤنيسيا » مغتبطا مسرورا فى هذه المرة ، محتضنا الى صدرى دنيز كذينك العاشقين الذين كانا سببا فى هربى منها . . دقة بدقّة ! !

ولما بلغنا محطة « مستر » التى تبعد عن ڤنيسيا عشرين دقيقة تقريبا ، هدأت سرعة القطار اذ أخذ يمشى وسط الماء ، فلما رأت ذلك دنيز جعلت تصفّق طربا وحينما بلغنا المدينة واستقللنا أحد

*



الزوارق التى تنتظر الركاب لدى المحطة ، كان سرور دنيز واعجابها بالمدينة العائمة بالغين النهاية . .

أما أنا فكنتُ سعيدا حقا لدى رؤيتى معبودتى دنيز جزلة مسرورة . .

وكم أشفقتُ وقتئذ فى نفسى على أولئك الفلاسفة المتشائمين الذين يزعمون أن الدنيا حقيرة لا تستحق الحياة من أجلها ، فقد كان منظر دنيز فرحة أمامى فى تلك اللحظة كالطفلة البريئة . . رائعا لا يقدّر ! . .

وقد نزلنا فى فندق « دانيلى » الفنّى القديم ذى الأرض المموّجة الذى كان مسرحا ذات يوم لغراميات «دى موسيه[1]» و «چورج[2] ساند» المحبين العبقريين . .

وكان الفندق فى ذلك العام غاصا بأبناء العالم الجديد الذين كان التناقض بيّنا بينهم و بين ذلك الفنــدق المظلم العتيق ، بسيماهم الفتية وثيابهم الزاهية الملوّنة . .

وأظن أن هؤلاء الأمريكيين لا يشعرون بما فى « ڤنيسيا » من

(١) شاعر فرنسى رقيق ١٨٦٧ - ١٨٠٤

(٢) كاتبة فرنسية كبيرة ١٨٥٧ - ١٨١٠

حياة شعرية خيالية بل يأتون اليها مقلّدين ،فقد تعرّفتُ بأحدهم ذات يوم فى الفندق وكان ثملا فسألته عن رأيه فى المدينة فضحك وقال : يجب علىّ أن أقول لك أنها مدينة أثرية جميلة ، كما قلتُ فى رسائلى لأصدقائى فى أمريكا ، ولكنى فى الواقع غير معجب « بفنيسيا » فهى غير صحية بمياهها الراكدة الاسنة ؛ ولو وجدت عندنا فى أمريكا لنسفتها ادارة الصحة نسفاً . . وكنا نقضى نهارنا فى مشاهدة الآثار الجمّة فى المدينة ، ولا يزال معظمها على حاله الأول ، كأن الدهر غفل عنها فلم يمسسها بسوء . .

أعجبت دنيز كثيراً بكنيسة « القديس مرقص » ذات الطراز « البيزانطىّ » العجيب ، وبما فيها من العمدان المرمرية المتعددة ، والفسيفساء المنوّع الجميل . . .

وأدهش دنيز كذلك قصر الدوق ـ مقرّ حكّام فنيسيا الفخام فى وقت عظمتها وسيادتها على « الأدرياتيك » ، وقد حُليت سقوف القصر الفخم بصور جميلة من صنع «ڤرونس» المبدع وهى مناظر رائعة تمثّل مجد «فنيسيا» القديم . .

وسرّت دنيز أيضاً بما شاهدته فى متحف «الأكاديميا» الجليل من صور زيتية دقيقة أبدعها «چيوڤانى بلّينى» العبقرىّ و«تيتان» العظيم . .

كذلك راقت دنيز تلك القناطر المرمرية ذات الطراز «القوطىّ» بزخارفها الدقيقة «كالدانتلّه» ، وما أكثر هذه القناطر فى «ڤنيسيا» ! . .

ثم شاهدنا مصانع الزجاج الشهيرة فى «مورانو» حيث تمكن الصانع الايطالى بالنار أن يخرج العجائب الفنّية . .

وقد اشترت دنيز لمنزلنا فى باريز تحفاً كثيرة دقيقة الصنع ، كلها من الزجاج . .

أما ليالينا فكنا نقضيها فى المرقص بالفندق حيث كانت دنيز لحسنها ورشاقتها موضع إعجاب النزلاء واهتمامهم . .

وكنا فى بعض الأحيان نتنزّه ليلا فى الزورق على مياه «اللاجونا[1]» الساكنة يحدونا صوت المجدّف الشجىّ . . حيث كل شىء حيالنا يدعو الى النشوة والحب : ضوء القمر ، وسكون

(١) بحر غير عميق كثير الجزيرات وعليها تقوم فنيسيا . .

الليل وروعتــه ، وماضى تلك القصور التى تحوطنا والتى طالما انغمس أهلها فى الحب والملذات ..

قضينا أسبوعين فى «ڤنيسيا» فى سعادة كاملة ، تتجـدّد كل يوم مسرّاتنا وملاهينا كأننا خاضعين «لنظام من الهناء» على حـد تعبير الـكاتب الألمانى الـكبير توماس مان .

* * *

سافرنا بعـد ذلك الى فيرنزى على متن الطيارة لأن دنيز قـد شاءت محاكاة سيدات الطبقة العليا الحديثات الى أبعد مدى ، اللواتى شاهدتهن مراراً فى السينما لا يستقلان مطية غير بنت الريح فى روحاتهن وغدواتهن

كانت رحلتنا الجوية هنيئة جـداً ، كما كانت تسلينـا رؤية الناس والماشـية والمنازل والأنهر مصغرّة من الطّيارة حتى خيّل إلينا أننا نشاهد أقزام « جليفر » [1] ..

---

(١) بطل قصة للـكاتب الانـكليزى الشهير سويفت ، وقد ذكر فى هذه القصة أن جليفر وصل الى مدينة يبلغ طول الساكن فيها ستة أيام الخ ..

وكان نهر الپياڤى وواديه الشهيرين يبدوان لناظرنا شيئين حقيرين مع أنهما قد كانا فى الحرب الكبرى مسرحا لوقائع عظيمة اشتبكت فيها مئات الألوف من الجند . . وقد كنتُ أخشى أن يصيب دنيز دوار فى هذه الرحلة ، ولكن عند ما بلغنا فيرنزى، واستفهمت منها عن صحتها صاحت بى قائلة : ان هذا لبديع ! كان يخيّل إلىّ أننى فى (المونتانى[1] روس) ! . .

بقينا فى فيرنزى بضعة أيام ونحن سعداء تحت قبّة زرقاء صافية ، وفى جوّ عليل نتنقّل بين آثار تلك المدينة العظيمة التى ازدهرت فنونها وآدابها فى زمان كانت فيه أوروبا تتخبّط فى دياجير الجهل والوحشية . .

وانه ليكفى فيرنزى شرفا أنها أنجبت للعالم فنّانين عباقرة أمثال « ميكل أنج » ، و «لوناردى ڤنش» ، و « دانت » شاعر الانسانية الكبير . . ومن يزر قصورها الفخمة مثل « الپلاسيو ڤكيو » ، « الپلاسيو ستروسى » الخ . . يشاهد هناك أروع النفائس الفنّية فى

---

(١) من ملاهى اللونابارك ، وهو عبارة عن مركبة تسير بسرعة عظيمة على قضبان من حديد فى طرق مموجة تارة مرتفعة وطوراً منخفضة .

العالم . . تلك القصور التى ليست فى حاجة إلى دليل لدى مشاهدتها إذ أن المرء يصل إلى إدراك تاريخها بمجرد وحى شعوره وخياله — كما تقول مدام دى ستيل [1] — وذلك لما يحوطه فيها من روعة وفخامة . . .

وقد حافظت فيرنزى كذلك على شكلها الأول اللطيف بطرقاتها الضيّقة المظلمة المعوجّة . . وما أجمل حدائق فيرنزى الغنّاء القائمة على نهر الأرنو ، تلك المدينة التى سميت بحق مدينة الأزهار ، فقد كنا فى أوائل شهر أبريل ومع ذلك كانت أوديتها وحقولها زاهرة زاهية كأن لمستها عصا الربيع الساحرة . .

ولكننا تعبنا فى النهاية - دنيز وأنا — من كثرة ما شاهدنا من الآثار فى تلك المدينة الجليلة فقفلنا عائدين إلى باريز . .

وكنت عرضت على دنيز الذهاب الى روما — حاضرة القياصرة والبابوية — وهى لا تبعد كثيرا عن فيرنزى ، ولكنها أبت قائلة :

كفانا معاشرة الموتى والأشباح ، لنعد إلى مدينة النور !

---

(١) كاتبة فرنسية شهيرة ١٨١٧ — ١٧٦٦

* * *

قضينا دنيز وانا أيامنا الأولى بباريز فى اقتناء الأثاث والتحف لتجميل منزلنا وكنتُ قليل الغاية به عند ما أقمتُ فيه وحيداً . .

كذلك ذهبت مع دنيز الى محل الخياطة الذى كانت تعمل فيه من قبل لتجهيز ثياب الربيع ..

وقد استقبلها هناك رفيقاتها فى بهجة وسرور غير مصطنعين لأن هؤلاء الفتيات العاملات هنّ أطيب الناس قلباً فلا يحسدن رفيقاتهنّ اللواتى ساعدهنّ الحظ ، كما هو الحال فى الأوساط العليا ..

وكانت دنيز تسألنى رأيى فى كل ثوب يعرضونه عليها ، ولما كثرت أسئلتها قلتُ لها ضاحكاً : روحى عن نفسك ياعزيزتى فان كل ثوب ترتدنيه يصبح بك جميلاً ..

ثم اخذنا نقوم بسيارتى ذات المقعدين ، برحلات شيقة فى ضواحى باريز التى ايقظها الربيع من سُباتها العميق ، فما أجمل منظر ذلك البعث فى الطبيعة ، حينما تشاهد السحاب فى السماء يخلع عنه فروة الشتاء ، وتفاجىء الخضرة وهى تتسلّق غصون الشجر ، وتنظر الى الأزاهير وقد تفتّحت أكمامها تحيّ بثغرها البسّام : الضوء ، الشمس ، الربيع ، الحياة !..

فكم مرة تنزّهنا فى قصور فرساى وحدائقها الشاهقة حيث عاش ملوك فرنسا الفخام على مسارح شبيهة بألف ليلة وليلة لما أقاموا من أعياد وأفراح لم ير الدهر مثلها فى الترف واللهو والمجون ..

وكان يخيّل الينا لدى طوافنا بتلك الأماكن كأنا سوف نلتقى بسكانها النبلاء الذين عزّ عليهم مغادرة قصورهم فظلّت أشباحهم تلازمها ..

سألتُ دنيز لدى اجتيازنا أحد دهاليز القصر :

ما تصنعين ياعزيزتى لو تقابلنا الآن وجهاً لوجه بالمپمپا دور (١) فى موكب من اتباعها وندمائها ؟

فأجابت دنيز : يكون جميلاً يارينان ! فتلك المرأة كانت لاتزال ساحرة حتى أطاقت المملكة اسرافها الذى سبّب سقوط أفخم اسرة مالكة فى أوروبا فى ذلك العصر ..

وكذلك ذهبنا الى قصر « فونتنبلو » الجميل الذى شاهد صعود « النسر » وسقوطه إذ هناك تنازل ناپليون عن عرش فرنسا

(١) عشيقة الملك لويس الخامس عشر .

سنة ١٨١٤ ، ولكن نكبة ذلك الرجل العظيم لم تكن مما تحزن له دنيز فقد كانت تؤاخذه على طلاقه من زوجته الأولى چوزفين — التى هى من بنات الشعب — ليصاهر آل هبسبورج ! .

وقصر فونتنبلو خفيف الظل على الطراز اللطيف المعروف بالرنيسانس ، ولم لا يكون كذلك وقد تبيّده عاهل بسيط مرح يحب الحياة ويقدّر مسرّاتها وملاهيها ذلك هو الملك فرنسوى الأول .. وعلى يمين القصر حوض كبير مملوء بالماء كانت دنيز تقصده حينما تذهب لزيارة القصر لتلقى فِتاتاً من الخبز إلى السمك الكبير الملوّن الذى يسبح فيه .

كذلك كان يروقنا السير فى غابة فونتنبلو العظيمة تحت ظلال أشجارها الباسقة ..

وطالما ذهبنا فى الصباح إلى غابة بولونيا حيث كنا نمتطى جيادا ونمرح فى ظلال أشجارها الوارقة ، وقد علّمتُ دنيز ركوب الخيل ، وعندى أنه ليس ألطف منظراً من امرأة على صهوة جواد ..

ثم كنا نذهب لتناول « الأپرتيف » فى « الأرمنڤيل » حيث

نقابل بعض الأصدقاء لأنى كنتُ أتجنّب الاختلاط بالنـاس رجاء التفرّد بدنيز و بنظراتها الفاتنة وابتساماتها الساحرة ، وقد كنت أغار عليها حتى من مجرّد نظر الغير اليها ، وكم وددتُ وقتئذ أن أكون شرقياً حتى أستطيع أن أرغم دنيز على الاحتجاب !

وكنتُ أفكر أحيانا — وأنا جالس على انفراد مع دنيز — أفكاراً صبيانية ساذجه ، مثـلا : أن نكون — دنيز وأنا — عصفورين يتناجيان على غصن شجرة وارفة باسقة حتى لا تقع عين انسان عليهما ، وأن تكون هذه الشجرة فى غابة بعيدة جداً ، مفقودة فى مجاهل الهند أو الصين !

وكنتُ إذا ذكرتُ مثل هذه الافكار لدنيز ضحكتْ وقبّلتنى وهى تقول :

أنت لاشك مفتون بى ياعزيزى رينان !

لقد كنتُ أحب دنيز حقا ، كنتُ أحبها عـدد مافى السماء من أنجم !

رب ! ما هو الحب ؟ وما هذا السلطان الذى له على الناس ؟

أهو مرض ؟ كلا ، بل هو السحر الذى يجعل النفس مسيرة خاضعة لسلطان خفى قاس ، ولكنه مع هذا ممتع لذيذ !...

ولكم أعجبتُ من أجل ذلك بحكمة آبائنا الأقدمين الذين كانوا يعالجون الحب بالرُّقى والتعاويذ . .

ولكن أكانت دنيز تحبنى ؟ أجل ، فان نظراتها لى كانت تفيض رقة وحنانا . .

ولكن أكان حبها لى يماثل حبى لها ؟ كلا ، ولقد كان هذا الأمر مما تحزن له نفسى . .

كم وددتُ أن يكون حبها مماثلا لحبى ، بل أن تكون روحى شقيقة لروحها اذ يؤكد [1] لامارتين أن كل روح فى الوجود لها شقيقة لا بد من مُلاقاتها والامتزاج بها عاجلا أو آجلا . .

ثم كنتُ أعود فاراجع نفسى وأقول :

ما هذا الهوس يا ريمان أنك كنت من قبل تدفع حياتك ثمناً لابتسامة من دنيز والآن ها هى بين ذراعيك ولستَ قانعاً ؟ احمد الله واشكره على ما أنت فيه من نعمة !

---

(١) شاعر وجدانى فرنسى كبير .

وقد ذهبتُ بدنيز كذلك لمشاهدة سباق الخيل فى « أوتوى » و « لونشان » ، ولكنها اهتمت بمشاهدة ملابس السيدات المتأنقات اللواتى كنا هناك لا لسبب سوى عرض ثيابهن . . أ كثر من اهتمامها بالمضمار . . .

* * *

قضينا كذلك عـدة أيام جميـلة فى « دوفيل » عروس « النورماندى » ـ حيث أمواج « المانش » الثائر تتخبط حيالنا على الرمال كأن جناً يطاردها وهى تتلمس النجاة منه . .

ولم تـكن « دوفيل » حين قدومنا اليها غاصة بالزوار لأن فصل الصيف كان في بدايته ، لذلك نزلنـا فى فندق بسـيط لرجل ثرثار متقدّم فى السن كان يسلينا بآرائه الفلسفية عن الحياة . .

وفى ذات يوم كنا نتناول طعام العشاء على انفراد ـ دنيز وأنا ـ بالفندق ، وكانت فى تلك الليلة معتلّة المزاج حتى أنى لما قدّمتُ اليها قدحا من النبيذ الأبيـض المعتّق رفضته ، فلما رآها صاحب الفندق تفعل ذلك ، وكان قد أقبل يحيينا ، صاح بها قائلاً : اشربى ، اشربى

يا صغيرتى هذا هو الاكسير الذى يردّ الى المرء سروره وسعادته . . ما للشباب والحزن ؟ اشربى ، إن الشباب قد خلق للمرح والسرور ! صدّقينى يا صغيرتى ليس فى الدنيا ما يعادل فترة الشباب فى عمر الانسان . . لقد كنتُ ــ أنا كذلك ــ شابا مثلك ، وقد أَحببتُ وأُحببت ولكنى لم أقدّر السعادة التى كنتُ فيها ــ حق قدرها ــ الا بعد أن فقدتها ، عند ما ابيضّت ناصيتى وأدركتنى الشيخوخة المفزعة .. فقاطعته دنيز قائلة بابتسامة حلوة : ولكن الشيخوخة ليست على ما تزعم من الرداءة فان المرء يدرك فيها صفاء النفس ، وراحة البال والقلب . . فقال الشيخ : كلا يا صغيرتى هذا ما يزعمه الخياليون ، ولكن الحقيقة أن الشيخوخة هى الحياة مريرة ممسوخة ، هى أن ترى الناس يخوضون غمار اللذات ، وأنت حيالها كالمقعد ! هى أن تقدم لك كأس النشوة فلا تتمالك الشرب منها اذ يداك لا تقويان على حملها من رعدة السن ! هى أن يهتف بك ملاك الحب يدعوك للّذة الكبرى فلا تصغى له وقد ثقل سمعك ! هى أن تنادى حبيبك فينفر من صوتك المبحوح كما ينفر العصفور لصوت الطير الضائر ! ..

وكان الرجل كلما استرسل فى حديثه ، زاد حماسةً ، وانقلب صوته

الى نبرة محزنة ، ثم نظرت اليه فاذا بعينيه أغرورقتا بالدموع . فقلتُ له ضاحكا : إنك تبكي ياصديقى ، هلا احتسيت هذا الكأس ، وقد ناولته قدحا من زُجاجة النبيذ فأفرغه فى فمه وهو يقول : ماذا تريد ؟ أنها لذكرى شجية . . .

تأثرت دنيز من حديث الرجل واعتراها قليل من الغم فقصدنا الى الكازينو فى تلك الليلة حتى اسرى عنها ، ثم دخلنا قاعة اللعب حيث جلستْ دنيز الى مقعد على إحدى موائد « البكرا » الخضراء ، ووقفتُ وراءها لأرشدها إذ كانت لا تفهم جيداً هذه اللعبة . . . وقد كسبت دنيز فى هذا المساء مبلغاً كبيراً من المال ، وكانت كلما ربحت ضحكت ضحكا عالياً . .

وقد كان حظها عظيما حتى أن « اليد » ظلّت تلازمها تسع مرات متتالية . .

أما أنا فقد أطرقتْ من أجل ذلك إذ تذكرت القول الشائع :

« سعيد فى اللعب ، تعيس فى الحب . . »

* * *

وفى ذات ليلة — لدى عودتنا الى باريز — رأينا أن نغتنم

الراحة المنزلية فاذا بالعاملات زميلات دنيز فى محل الحياطة ، يفاجئننا بالغارة على الدار ، ثم أقبلن على الفنوغراف وأخذن يرقصن على نغماته ، وقد قدّمت اليهن دنيز الحلوى والپورتو . . وقد كان جميلا حقاً منظر أولئك الفتيات الحسان وهن على هذه الحال من الغبطة والسرور يفضن شبابا وصحة !

بعد ذلك أخذن فى الطواف بحجر الدار يقلبن تحفها ، كأن المكان «صالة مزاد » ، كذلك هجمن على غرفة دنيز ، ولم يغادرنها إلا بعد أن حملت كل واحدة منهن تذكاراً .

***

وفى ليلة أخرى كنا نتعشى فى غابة بولونيا ، وكان الطقس جميلا ومطر الربيع يملأ الجو عبيراً ، وقطرات الماء وهى معلّقة كالدّر المنثور على الأشجار تكسوها بهجة ورواء .

ولما انتهينا من طعامنا ، سألتُ دنيز :

هل لك فى زيارة بعض المراقص ؟

نبدأ بالحىّ « اللاتينى » أولا ، ثم «مونپرناس» ، و بعد ذلك نقصد حى « مونمارتر » العجوز .

فأجبتها مغتبطاً ، إذ لم يكن لدى أحب من أن أحقق كل رغبة لدنيز :

ان رغباتك يا مولاتى لهى أوامر لعبدك المخلص المطيع ،

ثم تناولت يدها فقبلتها على الطريقة المسرحية - فى خشوع واحترام!

ولما بلغنا الحىّ اللاتينى ، فكّرنا فى زيارة السيدة العجوز صاحبة الفندق الذى عرفتُ فيه دنيز ، وكنا مقصّرين فى حقها إذ لم نزرها منذ عودتنا إلى باريز ، ألم يكن واجباً على أن أحجّ إلى ذلك المكان المقدّس الذى حصلتُ فيه على سعادتى المنشودة !

ولكنا عدلنا فى اللحظة الأخيرة عن هذه الزيارة خوفاً مما كان ينتظرنا من وابل عتاب هذه السيدة الطيبة والثرثارة بحكم السن !

قصدنا بعد ذلك المقهى الصينى ، ولكن مقامنا فيه لم يكن طويلا اذا كان الزوّار قليلين ، ولم ينزل إلى حلبة الرقص إلا عدد ضئيل من الطلبة ، فكان الاركستر من أجل ذلك يعزف ببطء وبدون اكتراث .

ثم قصدنا مونپارناس حيث دخلنا فى «مقهى السود» ، وكان

مزدحماً بكبار الزوّار حتى لكنت تشاهد سرباً من السيارات الفخمة واقفاً أمام المدخل .

وقد لاحظنا أن الأغلبية العظمى من الزوّار كانت من البيض الذين بلغ بهم سأمهم من لونهم أنهم جاءوا الى هنا ينشدون مودة السود .

كم كان عجيباً منظر السيدة البارزية المتأنقة وهى بين أحضان رجل أسود ، تراقصه فى لذة وابتهاج .

أما المقهى نفسه فكان مزدان الجنبات بالنخيل والخيزران . كما أن حلبة الرقص كانت محاطة بأكاليل من الورق الملوّن ، وكان أفراد الاركستر من الجنس الأسود أيضاً يعزفون بالأنغام « البربرية » « الفكس » و « البلوز » .

وكم ضحكنا فى تلك الليلة من مشاهدة أولئك الأوروبيين الذين خلعوا عنهم مختارين ، ثوب المدينة فى تلك الليلة ليولولوا ويصخبوا كالبربر ، ليزيدوا الحفلة جلبة وجنوناً .

لدى انصرافنا من مقهى السود قصدنا — مشياً على الأقدام — المقهى المشهور « بالعصفور الأزرق » ، وهو لا يبعد عنه كثيراً . .

وهـذا المقهى مبنى على آخر طراز حيث يتجلى الهوس الفنّى الحديث إذ تشاهد هنا وهناك رسوم نظريات هندسية وعمليات جبر تحلّى سقوف المرقص وجـدرانه ، كذلك ترى به صوراً مدهشـة كصورة ملائكة بأجنحة طيارات ، أو جسم إنسان رأسه فى أسفله الخ..

ومعظم زوّار المرقص من طبقة الأدباء والفلاسفة وأهل الفن ..

كنتَ تشاهد به أيضاً المناظر البوهيمية الحقيقية لما كان عليه القوم من نشوة ومرح ، وعدم الاكتراث بالملابس ، كما كنت تلاحظ الشوارب والذقون المقصوصة على أشكال غريبة مضحكة ..

وقد صدق الشاعر الكبير ڤيكتور هوجو فى قوله : «الرجال ، أطفال كبار» .

وكنتَ تشـاهد فى المرقص بعض مناظر الحب الشاذ تصوّر ما كانت عليه صادوم وعمورة؟. .

وقد ضحكنا كثيراً من مشاهدة هذه المناظر الغريبة وبوجه خاص حينما أخذ هـذا الجمع المشكّل يرقص الرقصات البربرية . وقد خيل إلينا وقتئذ أننا فى ليلة « ڤليورجس[1] » ..

---

(١) تزعم الخرافة الألمانية أن الجان والسحرة يجتمعون فى رؤوس الجبال . فى ليلة القديسه ڤليورجس للرقص واللهو . وقد خلدجوتي هذه الأسطورة فى رواية ڤاوست الشهيرة .

ثم قصدنا حى مونمارتر العجوز حيث الملاهى ذات الطابع الفرنسى المحض ، علماً بأن مونپارناس والحى اللاتينى يغمرها السياح والأجانب الخ . .

وكنا نسمع أثناء سيرنا فى شوارع مونمارتر المتصاعدة أصوات الموسيقى المختلفة : ضجة « الچاز » ، أنات « التانجو » .. المنبعثة من المقاهى القائمة على جانبى الطريق ..

ذهبنا الى مقهى « الفأر » فى الجهة المرتفعة من مونمارتر قرب كنيسة سا كركور ، فى طريق ضيق مظلم ، وقد روعى فى تشييده أن يشابه خمارة قديمة ..

أما الأثاث فكان غريباً كذلك إذ كان المكان مضاء بمصابيح الزيت القديمة ، وكانت مقاعده قطعاً مربعة من الخشب ، وموائده براميل صغيرة ، وقد قدم لنا الخادم «پورتو» أحمر لذيذاً ، وكانت فى الكاس كرزة شهية شوقتنا الى طلب دور آخر من النبيذ ..

ثم بدأ رجل يرتدى لباس الأوباش يغنى — بصوت لا بأس به — انشودة فرنسية قديمة ، ثم تبعته امرأة تلبس ثوبا حقيرا

أسودَ فغنّت الأغنية الفرنسية المؤثرة « ماتعطين أيتهـا الحسناء ليردّ عليك حبيبك ؟ أعطى ڤرساى ، باريز ، سان دنى [١] أعطى أبراج النوتردام [٢] وجرس (كنيسة) قريتى »

وكانت نبرات صوت هذه المغنّية شجية حزينة يرسلها لاشك قلب كليم ذاق مرارة الحب . . وما كادت تنتهى حـتى ابتلت عيناها بالدموع . .

تأثّرت دنيز لسماعها هذه الانشودة ، ولبؤس المغنيّةفناولتها مئة فرنك ، ثم نهضت مقطبة الوجه وهى تقول :

انى متعبة ، هيا نعود الى الدار يا رينان لقد تجوّلنا كثيراً هذه الليلة .

ثم دفعنا حسابنا وانصرفنا على الفور .

* * *

فى اليوم التـالى لتلك السهرة التى زرنا أثناءها مقاهى باريز الليلية ، لم تحضر دنيز الى غرفة الطعام كعادتها لتناول الفطور وقـد

---

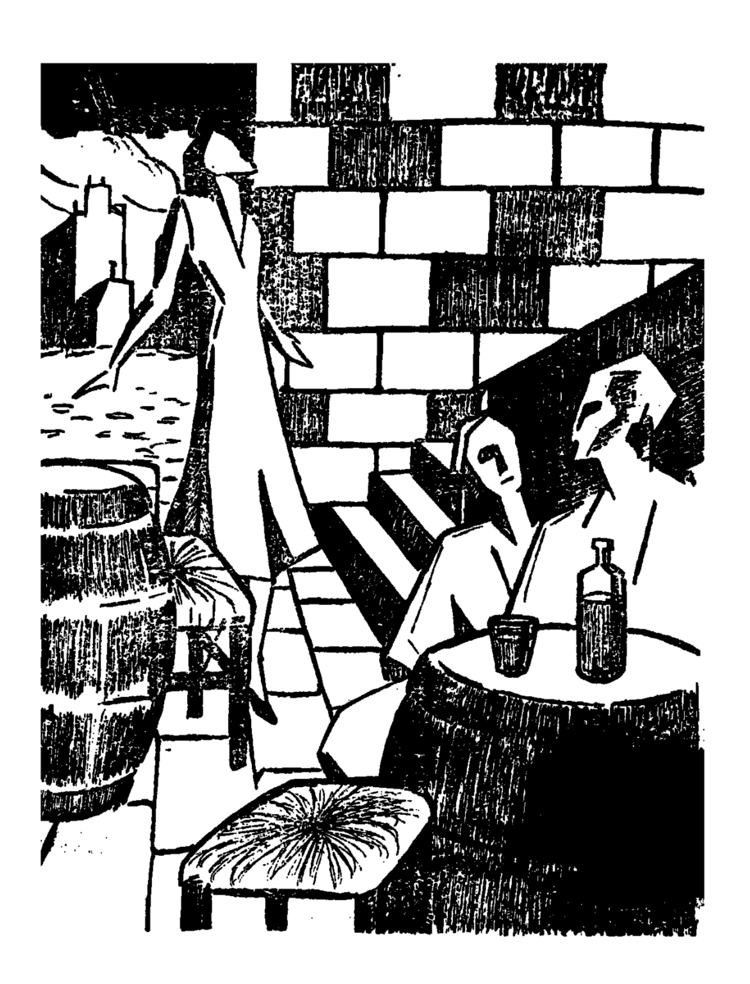
(١) حى باريزى .

(٢) كنيسة شهيرة بباريز .

ظننتُ انها لا تزال نائمة فذهبتُ لاوقظها ولكن لشد ما كانت دهشتي عظيمة اذ وجدتها منتبهة شاحبة الوجه ، محمّرة العينين ، فسألتها اذا كانت قد بكت فأجابت بالايجاب قائلة ان صداعا شديدا قد سبب لها ذلك ، فقلتُ هل أُحضر الطبيب ، فابتسمت وقالت : شكراً لا حاجة لى بطبيب وها انا أحسّ الآن انى أحسن حالاً ، فاذا استرحتُ قليلا زال كل شىء ! .

فقبلّتها فى جبينها وغادرتُ حجرتها .. منذ ذلك اليوم ــ لشقائى العظيم ــ تغيّر طبع دنيز فحلّ الحزن فى هيكلها الدقيق ، وفارقت ثغرها تلك الابتسامة الحلوة التى كانت تستقبلنى بها صباح كل يوم فكانت مصدراً لأمالى وسبباً لتعلّقى بالحياة الدنيا السخيفة ، ولكن دنيز كانت مع ذلك تتظاهر بالسرور كلما وُجدتُ معها حتى لا تشعرنى بتغييرها فاذا خلت إلى نفسها ابتأست ونظرت للفضاء نظرة شقاء ويأس . وكنتُ اذا فاجأتها وهى على هذه الحالة ارتبكتُ كمن يُفاجأ فى ارتكاب جريمة ! .

ولم تعد لها رغبة فى الخروج بل كانت تقضى وقتها فى مطالعة



القصص تقرؤها بدون اهتمام ، وكنتُ اذا سألتها أحياناً من باب المزاح عن موضوع قصتها ، تعثرت معتذرة بالنسيان ..

ثم أخذت تفقد من وزنها بعد أن فقدت شهيّة الأكل ، وكنت مع ذلك أرغمها على تناول الطعام كالأطفال ، تارة بالحيلة وطوراً بالتوسّل والرجاء ..

فى هذه الحال اضطررتُ أن أحضر لها الأطبّاء لفحصها رغم معارضتها ، ففعلوا ولم يجدوا فى الجسم علّة ما ، وانما أجمعوا على أن الذى تشكو منه دنيز هو ضعف عام ، وان تغيير الهواء وتبديل البيئة هو الدواء .

وقد قطعتُ كل علاقة جنسية بدنيز منذ ذلك الحين حتى لا اضايقها ، وكنتُ أشعر من نظراتها انها شاكرة لى ذلك .

وكنتُ افكّر الساعات الطويلة فى سبب تغيّر دنيز لأنى كنتُ لا اصدّق بطبيعة الحال ان الضعف يفعل كل ذلك التبديل فى مثل هذه الفترة الوجيزة . .

ربّ ! كم نقمتُ على الوجود وقتئذ وحقدتُ على هذه الدنيا القاسية التى لم يكفها ما تعذّبته من قبل حتى تضربنى ضربة جديدة ! ما كان السبب فى تغيّر دنيز ؟ أيكون السبب بعث حبها القديم ؟ ربّ ! لقد صعقتنى هذه الفكرة عند ما خطرت ببالى ، كما يصعق الكرسى الكهربائى ، الجانى فى أمريكا . .

أترى جاءتها رسالة من ذلك الرجل البغيض ؟ كلا ! فانى تأكدت عكس ذلك من الخدم ، فضلا عن أن الصدفة شاءت أن ساعى البريد لم يحضر فى ذلك اليوم الذى بدأ فيه تغيّر دنيز . .

أم شاهدته دنيز فى مقهى من المقاهى التى زرناها تلك الليلة المشؤومة ؟ كلا أيضاً ! فان عينىّ تراقبان دنيز على الدوام فى نظراتها ، كما يُراقب الشمس ، زهر عباد الشمس !

وكلما سألتُ دنيز عن سبب تغيّرها تعللت بضعف الصحة ، وكنت ألاحظ استياءها من مثل هذه الأسئلة . .

ربّ ! كم عذّبنى الشك فى تلك الأيام المبرّحة !

* * *

سافرنا بعـد ذلك الى مونترو بسويسرا لعل دنيز تنتعش هناك بتبديل الهواء كما أشار بذلك الأطباء ، وقد اخترتُ هذا المصيف لحسن موقعه على بحيرة « ليمان » الشهيرة . .

ولما أخبرتُ دنيز بهذا الاختيار بدا عليها الاغتباط فاستبشرتُ خيراً من سرورها بهذا الاختيار وعلّلت النفس بقرب تقشّع تلك السحابة السوداء التى ظلّلت سماء سعادتنا زماناً . .

* * *

ها نحن أولاء يعدو بنا القطار من باريز إلى مونترو ، يترجّح بنا اختلاط العجل والقضبان وكأنه جرس السياط . .

وعبثاً نحاول أن نتبيّن من النافذة المناظر التى تختلف علينا إذ أن الضباب المتكاثف والمطر الهاطل يحولان بيننا و بين هذه الرغبة . . ثم ما لبث الجوّ أن تغيّر فانجلى الضباب وتقشّـت السحاب ، على أن مفاجآت الجو فى الصيف أمر مألوف كما تعرف ثم مررنا بمدينـة

لوزان ، ولما بلغنا ساحل البحيرة بدت هذه بالمنظر الجميل ، وإذا برائحة شذية تعبق فى الجو ترسلها الخمائل والرياض التى يجتازها قطارنا فى طريقه إلى مونترو . .

أما مصيف « مونترو » فهو : بعض الفنادق الكبيرة والفيلات الجميلة المشيّدة حيال البحيرة ، تحوطها الحدائق المنسّقة على أحدث طراز . .

وقد نزلنا بفندق « مونترو پلاس » المطلّ على هذه البحيرة بالمنظر الضاحى كما أن جبال « السفوى » الفخمة تطلّ عليه . . وما أعظم تلك الجبال ، وما أروع تيجان الثلج التى تُحلّى رؤوسها !

وقد ابتهجت دنيز لهذه المناظر الطبيعية الجميلة ولكن سرورها كان دائماً قصيراً كفترات سطوع الشمس فى أيام الشتاء . .

وكنا نقوم برحلات جميلة بهذه البحيرة المحاطة بالجنّات والخمائل ، وان بين هذه المناظر الطبيعية الساحرة ما هو جميل حتى « ان المرء ليودّ أن يحتضنه » على حد تعبير فلوبير [1] . .

---

(١) جوستاف فلوبير قصصى فرنسى شهير .

وقد تعرّفنا إلى بعض نزلاء الفندق ، وكانت مجالسهم تسلى دنيز ، من أجل ذلك كنت أجتهد فى التعرّف بالناس ، أنا الذى كنت أتجنّبهم من قبل كى أنفرد بها . .

كانت جماعتنا ثلاثة أولهم : سيدة انجليزية عجوز طافت مرتين حول الأرض وقد جاءت إلى سويسرا للراحة قبل القيام بالرحلة الثالثة وكانت تزعم ان هذه ربما تكون الرحلة الأخيرة لها . . وكانت أديبة مطّلعة لها معرفة واسعة بالعالم إذ استطاعت برحلاتها أن تدرس الشعوب وأحوالها فى مكانها . وكانت تقول أنها اختارت بحيرة « ليمان » للاقامة متأثّرة بالشاعرين العظيمين بيرون ولامارتين اللذين أشادا بذكر البحيرة فخلدتْ بشعرهما كما خلد شعرهُما بها . .

وكانت تترنّم دائما فى لهجة انجليزية مضحكة بهذه الأبيات الجميلة التى يقولها لامارتين للبحيرة ، وذكر فيها اللورد بيرون ، ذلك الشاعر الشارد :

« وقع بيرون على شاطئك ينزف ويموت كالمجاهد الذى أضناه

القتال . . يقولون ان صوته فى صرخاتك وعينه فى صاعقتك وذلك عند ما تثير الرياح سوجك الأرجوانى »

وثانى الجماعة ، نبيل ايطالى وريث للقب كونت وكان منفيا من بلاده لأنه من خصوم النظام الحاضر فى ايطاليا ، والرجل فى الخمسين من عمره ، تظهر عليه آثار النعمة — التى نشأ فيها - وما اشتملت عليه كذلك تقاطيع وجهه من الدقة . . وكان الكونت يقضى وقته فى سويسرا فى التآمر مع بعض الزعماء الايطاليين المبعدين مثله من الوطن ، ولكن كان يفعل ذلك فى احتراس شديد حتى لا يعرّض للخطر ، أملاكه الواسعة فى ايطاليا !

وكان الرجل مولعا بفن التصوير الزيتى ، ملمّا بقواعده تأحد أساتذة مدرسة الفنون الجميلة . .

وكان يصور بعض المناظر الطبيعية ، وقد أرانا الصور التى نقلها عن البحيرة فكانت دليلا ساطعا على البعد بين العلم والعمل ! . .

وكان الكونت يجيد الفرنسية وينطقها نطقا فصيحا حتى أنه لم

يكن يتعثر كمعظم مواطنيه فى نطق حرف (الج) التى ينطقونها (ز)..

وكانت للسكونت آراء شاذة فى تقدير الجمال فكان يزعم أنه يكفيه للتعلق بامرأة حسن زينة رأسها ، وبأخرى نبرات صوتها الرقيقة وبثالثة نعومة يدها ، وبرابعة نظراتها العميقة ، وبخامسة حاجبها الدقيق ، وبسادسة صورتها الجانبية . . .

وقد سألته دنيز عما يعجبه فى دنيز منها ، فصاح قائلا :

أنت يا سيدتى الجمال بعينه ، أنت جنية بيجماليون [١] ! .

وثالث الجماعة سيدة فرنسية فى الحلقة الرابعة من عمرها قدمت إلى مونترو لتمضى بها دور النقاهة من مرض عضال ألزمها الفراش الأشهر الطويلة ، وهى زوجة أحد كبار موظفى الحكومة البلغارية ، وكانت تذكر لنا على الدوام وطنها الثانى ، منزلها فى صوفيا وزوجها الذى كانت تحبه حباً جماً ، وكنت أغبطها على هذه السعادة ، وهذا

---

(١) تزعم الأساطير أن بيجماليون كان مثالا بارعا في قبرص ، وقد صنع تمثالا بديعاً لامرأة ما لبث ان افتتن به ، ثم دبت الحياة في التمثال فتزوج منه .

الحب الذين حُرمت منها . وكان زوجها قادماً إلى مونترو بعد ثلاثة أسابيع ـ كما تقول ـ ليصحبها فى عودتها إلى صوفيا .

وكنا نقوم أحيانا ببعض الرحلات مع هذه الجماعة فنذهب تارة الى چنيف لشراء الساعات السويسرية الشهيرة التى كنا نجدها هناك أغلى ثمناً منها فى باريز . وطواراً نذهب مساء الى كازينو اڤيان القائم على تلك البحيرة فنقضى الليل فى مشاهدة الرقص واللعب .

ذهبنا مرة أخرى إلى زيارة قصر « شيون » وهو قريب من مونترو ، قائم على البحيرة كذلك ، وكان سجناً « لبنيڤار » من أبطال الاستقلال السويسرى ـ وقد سجن فى هذا القصر بأمر الدوق دى سڤوى ، وكنا جميعاً معجبين ببطولة الشعب السويسرى الذى دافع عن حريته بشجاعة واقدام ، وكان أكثرنا حماساً ، السيدة الأنجليزية التى كانت تغبط السويسريين لما اختصهم الله من اقدام وطبيعة جميلة ، وكانت تذكر بهذه المناسبة قول لامارتين عن المواطن السويسرى : « ان له روح الوطنى فى قلب شاعر »

ولكن صديقنا الايطالى كان يخالف هذا الرأى فيقول أن

السويسرى تنقصه الرّقة ، وذلك لأن الشعب السويسرى لم يكن يوما من الأيام شعباً أرستقراطيا ؛ بل كان دائماً نفعياً بحكم موقعه الجغرافى ! .

وكنتُ أشعر أن دنيز ترتاح لوجودها بين تلك الجماعة حتى لا أنفرد بها ، لأن معاشرة الناس فى مثل هذه الظروف مسعفة للقلوب الدامية ..

قررنا ذات يوم تسلّق الجبل المعروف «بالدان دى مدى» المطلّ على مونترو ، فذهبت مبكراً فى صباح ذلك اليوم الى حجرة دنيز لأوقظها فوجدتها جالسة الى مقعد فى شرفة الحجرة فاستعجلتها اللبس حتى لا ننقطع عن جماعتنا الذين كانوا ينتظروننا فى ردهة الفندق .. فنظرت الىّ دنيز نظرة لن أنساها ما حييت لما اشتملت عليه من الرقة والحنان وقالت : أنى بردت ليلة أمس فيحسن بى ملازمة الفندق ، فقلتُ لها : إذن سأبقى معك ، والآن سأنزل لأعتذر لأصدقائنا فابتسمتْ وقالتْ : كلا ! بل يجب أن ترافقهم كما تقضى به اللياقة ، أما أنا فسأمضى الوقت فى مطالعة هذه القصة ، وأرتنى فى يدها كتاباً لمراسل بريفو . فلم ألحّ عليها وانصرفت ..

وعند ما عدنا فى المساء الى الفندق ، بحثت عن دنيز فى شرفة الفندق الكبرى حيث اعتادت الجلوس فلم أجدها ، فصعدت الى حجرتها عساها تكون آخذة فى الاستعداد للعشاء .. طرقتُ الباب فلم يجبنى أحد فدفعته ودخلت فاذا الحجرة خالية وليس بها شىء من متاعها ، ثم ما لبث نظرى أن وقع على رسالة منها باسمى موضوعة على مائدة التواليت فتناولتها فى اضطراب شديد إذ هى رسالة الفراق « الكلاسيك » لا شك ، ففضضتُ الغلاف وتلوتُ :

« عزيزى رينان

نعم وقع الأمر الفظيع ، الأمر الذى كنتَ تخشاه منذ لقائنا بحديقة الاكسمبور ، نعم لقد بُعثت حبى القديم ، بعثته تلك المرأة البائسة التى غنّت فى مقهى « الفأر » بمونمارتر تلك الاغنية الفرنسية :

« ما تعطينى أيتها الحسناء ليردّ عليك حبيبك ، أعطى فرساى ، باريز ، سان دنى الخ . . » نعم ان نبرات صوت هذه المغنية الشجية نزلتْ فى تلك الليلة الى أعماق قلبى فأدمت ثانية التئام جرحه الحديث ، سامحنى يارينان على ما استبّبه لك من حزن جديد . ومع

ذلك لقد كنت صادقة فى حبى لك حتى تلك الليلة المشؤومة التى بُعث فيها حبى القديم . فعلتُ كل ما فى استطاعتى لأنسى ذلك الرجل ولكنى أخفقت . . كم قد تعذبت من أجل ذلك ، ومن اجل ما سببته لك أنت من الألم ، أنت أنبل من عرفتُ من الرجال خلقا، لن أنسى لك أياديك مدى حياتى وعنايتك بى و بوجه خاص أشكر لك التسامح وحفظك السر حينما شعرتَ بالحقيقة المرّة . .

سامحنى يار ينان لن أستطيع أن أقاوم بعد ، سأرحل الى انجلترا حيث وجدت وظيفة رفيقة لاحدى السيدات النبيلات . . كنتُ فكّرت فى دخول الدير ولكنى عدلتُ عن ذلك لأن حياة الدير الهادئة الساكنة لا تساعد المرء ابداً على نسيان همومه وأشجانه . . أرجو أن لا تحاول رؤيتى . . سامحنى يار ينان وفى ذمة الله ! دنيز ، »

لذلك اذن كانت دنيز ترمقنى فى ذلك اليوم بعين العطف والحنان !

وقد سافرت فى نفس الليلة الى باريز حتى أهرب من الاسئلة المؤلمة التى سوف يوجّهها الىّ أصدقاؤنا عن تغيّب دنيز ! وكدت

أقتل نفسي فى القطار اذ كان صوت احتكاك القضبان يضايقنى وكأنه يصيح بى « دنيز ، دنيز ، دنيز . . . » حاولت ان القى بنفسى من النافذة ولكنى جبنتُ مع الأسف ، لذلك أعجب من أمر أولئك الذين يقولون ان الانتحار ضرب من الخور !

ثم سكت رينان مليّا وأخذ ينظر من النافذة الى السماء نظرة حائرة كأنما كان يبحث فى زرقتها عن دنيز و بعد لحظة قطعناها فى سكوت عميق قال بصوت خافت : ها هى قصتى ! وكان وجهه سابحاً فى الدموع . .

* * *

قضيتُ بعد ذلك وقتى كله فى باريز بصحبة رينان ، وكنت أحيي مثله ــ لكى الّهيه ــ حياة المرح المستمرّة المتعبة . .

ثم وردنى ذات يوم تلغراف من أسرتى « بنيس » تدعونى لمقابلتها فيها ، وكانت قدمتها من مصر ، فعرضتُ على رينان أن يصحبنى فى هذه الرحلة ، فأبى وقال ان نيس مدينة هادئة لا توافق أعصابه المتهيّجة خصوصاً أن فصل الريڤيرا الصاخب كان وقتئذ لم يبدأ بعد . .

ثم سافرتُ بعد أن وعدته أن أعود اليه قريباً .

وفيما أنا أطالع صحف الصباح ذات يوم فى نيس وقع نظرى لجأة على هذا الخبر الصاعق « وُجد الشاب الرشيق رينان ـ س .. المعروف جيداً فى أوساط اللهو البار يزية ، ومقاهيها الليلية ، ميتاً هذا الصباح فى سرير نومه وكان قد تناول خطأ كمية كبيرة من دواء منوّم »

فهل حق ما نشرته الصحيفة ؟ وهل أصدق أن صديقى رينان مات نتيجة خطئه ؟ ؟ ....

كرمة ابن هانئ — فى نوفمبر سنة ١٩٣٢

*